﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ٩١﴾ [الحجر: 91]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التّفصيل بعد الإجمال للإشعار بخطر المقتسمين وبيان قبح عملِهم

لمّا أجمل المرادَ بالمقتسمين إجمالًا، بيّنه بالموصول وصلتِه، ليتّضِح أمرُهم ويستبين حالُهم[1]؛ وذلك أنّه بعد أن ذكر المقتسمين في الآية السّابقة بقوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ٩٠﴾ [الحجر: 90] بيّن هنا أنّ المقصود بهم الذين أجمعوا أمرَهم على رسول الله ﷺ بغرض صدّ النّاس عنه وعنِ القرآن الكريم، وفي سبيل تحقيق مأربِهم اقتسموا طُرقَ مَكّة للتّنفير عنه وعنِ القرآن، وكان نصيبُ القرآنِ مِنَ المُقتسمين - وهم أهلُ الكتابِ والمشركون - أن قَسَموا القولَ فيه، فقال أهلُ الكتابِ "بعنادهم وجهلهم: بعضُه حَقٌّ موافقٌ للتّوراة والإنجيل، وبعضُه باطلٌ مخالفٌ لهما، فاقتسموه إلى حَقّ وباطل"[2]، وتفرَّق المشركون في وصف كلامِه وأسلوبِه، فقالوا: شعرٌ، أو سحرٌ، أو كهانة، وكذَبوا في هذا كلِّه، فـ"الحالُ أنّه جامعُ المعاني، لا مُتفَرّقُ المباني، منتظِمُ التّأليفِ أشَدّ انتظام، متلائِمُ الارتباطِ أحكم التئام"[3]، مخالفٌ لكلّ ما وصفوه به، فهو نسيجُ وحدِه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عِضِينَ﴾: واحدها عِضَةٌ، من عَضَيْتُ الشّاةَ: جعلتُها أعضاءً وأقسامًا بعد أن كانت مجموعةً سويَّةً، والعِضَةُ: الجُزءُ والقِطعَةُ مِنَ الشَّيءِ، والاسم التّعضِيةُ، وأصلُ اللّفظِ عُضْوٌ، فحُذِفَتِ الواوُ الّتي هيَ لامُ الكَلِمَةِ، وعوِّضَ عَنْها الهاءُ، مِثْلُ الهاءِ في سَنَةٍ وشَفَةٍ، ويحتمل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/85.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/163.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/89.

أن يكون اللّفظُ مأخوذًا مِنَ العَضْه، وهو البَهْتُ، فحُذِفَت لامُهُ كَما حُذِفَتْ مِن سَنَة؛ إذ أصلُ اللّفظِ سَنْهَةٌ، ومثلُه الشَّفَة، فأصلها شَفْهَة، ومنه العُضَيْهَةُ: أن تَعْضَهَ الإنسانَ وتقولَ فيه ما لَيْسَ فيه، ويُجْمَعُ على عِضينَ[1]، و﴿عِضِينَ﴾ هنا بمعنى فرّقوه، فآمنوا ببعضِه وكفروا ببعضِه، أو فرّقوا القولَ فيه، فقالوا: شِعْر، وقالوا: سِحر، وقالوا: كِهانة، وقالوا: أساطير الأوّلين[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تنوّعُ أقوالِ المكذّبين في القرآن، ليصدّوا النّاسَ عن الهدى

ذكر اللّهُ تعالى وصفَ المُقتسمين ليبيِّنَ حالَهم وعادتَهم، فالمقتسمون: هم الذين جعلوا القرآنَ فِرَقًا وأقسامًا، فمنهم مَن يقول في القرآن: هو شِعرٌ، ومنهم مَن يقول: هو سِحر، ومنهم مَن يقول: هو كَهانة، ومنهم مَن يقول: أساطير الأوّلين، ومنهم مَن يقول غيرَ ذلك، فهم يصرِّفونه بحسب أهوائِهم، أو المقتسمون: هم الذين يؤمنون ببعض القرآن ويكفرون ببعضِه الآخر؛ والفريقان يفعلون هذا ليصدّوا النّاسَ عنِ الهدى والقرآن[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدة النّعتِ بالاسم الموصول:

الإنذارُ بالعذاب للّذين يفرّقون القولَ بالقرآن؛ لخيبتِهم وخُسرانِهم

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾، جاء الاسم الموصول نعتًا للمقتسمين؛ ليَصِحَّ إحضارُه بواسطة جملةِ الصِّلةِ المعلومة الانتساب، إلى مشارٍ إليه في ذِهن المُخاطَبين، والمعنى: كما أنزلنا على المقتسمين المَعهودين عندكم أنَّهم جعلوا القرآن عِضين، وفي مَجيء النّعتِ بالاسم الموصولِ بيانٌ لوجهِ بناءِ الخبرِ بما تَدُلُّ عليه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عضه).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 239، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 346، وابن الهائم، التّبيان، ص: 207.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/146، ولجنة من أساتذة التّفسير، التفسير الميسر، ص: 266.

الصِّلةُ، أي: بسبب جَعْلِهم القرآنَ عِضين، ففيه إشعارٌ بعلِّيَّة الصّلة، للحُكم الثّابتِ للموصول والموصوف[1]، كما أنَّ في التّعبير بالموصول وصِلتِه استهجانًا للتّصريح بالاسم، وإنباءً عن خيبتِهم وخسرانِهم؛ إذ قابلوا قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87] الذي أفاد تعظيمَ القرآنِ وتعظيمَ المِنَّة به، وأنَّه من عند اللّه تعالى؛ بجعلِه عِضين مفرَّقًا القولُ فيه، وبذا يظهر أن سِرّ فصل الآية عن سابقتها، هو ما بينهما مِن كمال الاتصال.

بلاغةُ الكنايةِ:

ما عاب القرآنَ أحدٌ إلّا بسبب حيرتِه وعجزِه عنِ التّحدّي

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾، لمّا جعلوا القرآنَ عضينَ، بمعنى: تفريق القولِ فيه؛ أفاد بلازمِه أنَّهم كانوا مُتحيِّرين في أمرِهم، مُتعجِّبينَ مِن عجزهم، يفزعون إلى التَّعليل والتَّعذير والمدافعة بما وقع التَّحدي إليه، ووُجِدَ الحَثُّ عليه، فبسببِ حيرتِهم وعَجزِهم عابوا القرآن فجعلوه عضين[2].

بلاغةُ الكنايةِ:

التَّحذيرُ مِنَ العمل ببعضِ القرآن وتَركِ بعضِه، عقيدةً أو تشهّيًا

وفي قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾ كنايةٌ أُخرى، وهي أنَّه لمّا جاء الكلامُ على ذمِّ جَعْلِهمُ القرآنَ عضين، وعيبِه وتقبيحِ فعلِهم وزعمِهم، ليَدُلَّ على كفرِهم بهذا الجَعْل؛ أفاد أنَّ الإيمان يكون في أخذ القرآنِ بجُملتِه، والعملِ بمجموعِه، ففيه تحذيرٌ مِنَ العمل ببعض القرآن وترك بعضِه، بسبب الإيمانِ ببعضِه والكفر ببعضِه الآخر، أو بسببِ التّشهّي في أخذ ما يوافق الهوى، وتركِ ما يخالفُه.

بلاغةُ الإيجازِ:

الإعجازُ في الإيجاز

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾، لمّا تفرّق قولُ المشركين وأهلِ الكتاب في القرآن، وتنوّعت أوصافُهم فيه؛ أوجزَ

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 181، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/90.
(2) الباقلانيّ، إعجاز القرآن، ص: 22.

مقولاتِهم كلِّها في هذا التّعبير، وليس مِن كلامٍ يوجزه مثلُ القولِ بجعلهمُ القرآنَ عِضينَ.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿جَعَلُواْ﴾:

شِدَّة مباعدةِ مقولاتِ المُكذّبين، لحقيقةِ القرآن المبين

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾، لمّا كانَ الجعل هنا بمعنى الزّعم أو الحُكم بالباطل، على غيرِ مثالٍ سابقٍ[1]؛ أفاد التّعبيرُ بالجَعْل التّعجيبَ مِن شِدَّة مباعدةِ قولِهم وحُكمِهم لمعنى القرآن وحقيقتِه، كما أفاد التّعجيبَ مِن شِدّةِ تكذيبِهم له؛ إذ أتَوا بما لم يسبقهم إليه أحدٌ في نوعِ الافتراء.

نُكْتَةُ مَجيءِ صلةِ الموصول فعلًا ماضيًا:

حقائقُ القرآنِ منطلقة مِنَ الواقع، لا مِنَ الاحتمال

عبّرَ بصيغة الماضي في الفعل ﴿جَعَلُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّهم قد أوقعوا الجَعْلَ المذكورَ، وتحقّقَ وقوعُه منهم، واستمرّوا عليه فلم يتراجعوا عنه، فاستلزم ذلك تحقّقَ ذمِّهم، وتوبيخَ جَعْلِهم.

نُكْتَةُ اختيارِ اسمِ القرآن دونَ غيره مِنَ الأسماء:

التّعجيبُ مِن جَعْلِ القرآنِ الجامع لثَمَرة كتبِ الله المُنَزّلةِ عضين

لم يقل: (الذين جعلوا الذِّكرَ عضينَ) مثلًا؛ لأنَّه لمّا كان القرآن مأخوذًا مِنَ القَرْءِ أو مِنَ القراءة، ويفيد أصلُه معنى الاجتماعِ وعدمِ التّفرّق، ولمّا كانَ في الاسم إيماءٌ إلى أنَّه جَمَعَ ثمرةَ كُتبِ اللّه، بل جمع ثمرةَ جميعِ العلوم؛ أفادَ أنَّهم تناقضوا في قولِهم، إذ جعلوا ما هو أمرٌ واحدٌ مجموعٌ مفرَّقًا القولُ فيه؛ ليَدُلَّ التّعبيرُ بلفظ القرآنِ على أنَّه جامعُ المعاني، لا متفرِّقُ المباني، منتظمُ التّأليف أشدَّ انتظامٍ، مُتلائمُ الارتباطِ أحكمَ التئامٍ، ففي مَجيء لفظِ القرآنِ تعجيبٌ مِن جَعْلِهمُ المَذكور[2].

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/468.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/90.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿عِضِينَ﴾:

القولُ بالتّعضيَة إزالةٌ لقِوامِ القرآنِ وحقيقتِه وجَوهرِه

لمّا عُبِّرَ عن تجزئة القرآن بهتانًا وفِريةً بالتَّعضية، التي هي - فيما ذهب إليه كثيرٌ مِنَ المُفسّرين وأهلِ المعاني[1] - تفريقُ الأعضاء مِن ذي الرّوح، المُستَلزِمُ لإزالة حياتِه وإبطالِ اسمِه؛ كان الكلامُ على طريق الاستعارة التّصريحيّة الأصليَّة، بتشبيه تفريقِهم للقرآن بالشّخص ذي الرّوحِ، الذي تُفرَّقُ أعضاؤُه فتَبْطُلُ حياتُه، وتذهبُ حقيقتُه، وفائدةُ الاستعارةِ: هي الإشعارُ بأنَّ جَعْلَهمُ الباطلَ يُبطلُ حقيقةَ القرآنِ، فهم بزعمِهم هذا أزالوا قِوامَ القرآنِ وما به يكون[2].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿عِضِينَ﴾:

من بلاغة القرآن دِقّةُ اختيارِ الكلمة؛ للتّعبير عنِ الدّلالة المُحْكَمة

عبّر بلفظ ﴿عِضِينَ﴾ دون أن يقال: (الذين جعلوا القرآن أجزاءً أو مُفرَّقًا)؛ لأنَّ التَّجزئةَ والتَّفريقَ ربما يوجدانِ فيما لا يَضُرُّهُ التَّبعيضُ مِنَ المثليّاتِ، وأمّا التَّعضيَةُ فتكون لذي الرّوح كما تقدّم، فالتّعبير بلفظ ﴿عِضِينَ﴾ تنصيصٌ على كمالِ قُبحِ القولِ بتعضيَةِ القرآن العظيم[3].

دلالةُ قولِه تعالى: ﴿عِضِينَ﴾:

الإيمانُ الانتقائيّ ببعضِ القرآن الحكيم، مِنَ البُهتان العظيم

يحتمل لفظُ ﴿عِضِينَ﴾ أن يكون جمعَ عضوٍ، واحدِ الأعضاءِ؛ لأنَّ معنى التَّعضيةِ التَّفريقُ، كما تُعَضى الجَزورُ والشّاةُ، فتُفرَّقُ أعضاؤُها، فيكون المعنى الذين عَضَهوا القرآنَ، أي: فرّقوه، فقال بعضُهم: هو سحرٌ، وقال بعضهم: هو شعرٌ، وقال بعضهم: هو كَهانةٌ، وقال آخرون: أساطير الأوّلين، وما أشبه ذلك، ففرّقوا القولَ فيه، ويحتمل أن يكون جمعَ عِضَةٍ، بمعنى: البهتان والرّمي بالباطلِ، والقولِ بما ليس في الشّيءِ، وجُمِعَ جَمعَ السَّلامة عوضًا لِما لَحِقَ اللَّفظَ مِنَ الحذفِ، والمعنى: جعلوا القرآن عضين حين اختلفت

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/662.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 4/489.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92.

أقوالُهم وتفرَّقت في وصْف القرآن، فرَمَوهُ بالباطلِ بهذا التّفريق، والمعنى متقاربٌ على كلا الاشتقاقين، فيُفيدُ لازمُ المأخذين أنَّهم جعلوا القرآنَ مفترًى، ويدخل في لفظ ﴿عِضِينَ﴾ مَن آمن ببعض القرآن وكفر ببعضه، فعن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: (هم أهلُ الكتابِ؛ جَزَّؤوهُ أجزاءً، فآمنوا ببعضِه وكفروا ببعضِه)، يعني قولَ اللّهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾[1]، ويدخل في عمومِ الذَّمِّ مَن يعمل ببعضِه ويترك بعضَه؛ لأنَّه جَزَّأه كذلك[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

عِضين وأقسام:

والفرق بينهما هو أنَّ العِضين جمع عِضَةٍ، وهو إمّا أن يكون بمعنى الشّيءِ المفرَّق من مجموعٍ على جهة تقطيعه، بعدَ أن كان سويًّا كاملًا، ومنه التّعضيَةُ بمعنى تجزئةِ الأعضاءِ، وإمّا أن يكون بمعنى البُهتِ، ومنه العُضيهةُ: أن تَعْضَهَ الإنسانَ وتقولَ فيه ما لَيْسَ فيه، فيكون ﴿عِضِينَ﴾ بمعنى: أنّهم فرّقوا ما لا يحتمل التّفريقَ كذبًا وزورًا.

العِضين هو المُفَرّق بهتانًا وكذبًا، وهو مذموم والأقسامُ أجزاءُ الشّيءِ، بلا مَدحٍ ولا ذَمٍّ

وأمّا لفظُ (أقسام): فهو جمع قسم، بمعنى إفرازُ النّصيب وتجزئةُ الشّيءِ، وقد يقع مدحًا، وقد يكون ذَمًّا[3]، فكان التّعبيرُ بلفظ ﴿عِضِينَ﴾ أنسبَ وأوفقَ للنّظم؛ لأنَّ المُشْركين فرَّقوا أقاويلَهم في القُرْآن بُهتانًا وكَذبًا، أي: فجعلوه مَرّةً كَذِبًا، ومرّةً سِحرًا، ومَرّةً شِعرًا، ومَرَّةً كِهانةً، فيُفيدُ اللّفظُ بإطلاقِه على بهتانِ المشركين في فِعْلِهم وذَمّهم عليه، وأنَّهم جعلوا ما هو واحدٌ لا يقبل التّجزئةَ لكونِه حَقًّا، ومِنَ الحَقِّ مَفرَّقًا القولُ فيه، بحسب أهوائِهم.

---

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3945).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/91، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/86، والواحديّ، التّفسير البسيط: 12/662، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/394، والفخر الرّازيّ: مفاتيح الغيب: 19/163، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/200.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عضه، قسم).